من أدباء الحجاز

عبد العزيز الزمزمي

— ٢ —

الاستاذ عبد الله عبد الجبار

ولقد كان الأديب الحجازي عبد العزيز الزمزمي ينظم الشعر حتى بعد أن وهى جسده ووهن عظمه ، وضعفت قوته . وكانت قريحته تسعفه وهو في سن السبعين بنظم القريض . ففي عام سبعين وتسعمائه أنشد قصيدة عذبة ، قوية النسج ، جميلة الديباجة ، يقل فيها أثر التعمل والتكلف ، وفي مفتتحها هذه الأبيات :

دعاك إلى زيارته الحبيب ... فهلا إذ دعاك لها تجيب
أيا داعي الفلاح وأنت داع ... تلبين بما دعوت له القلوب
لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن شأن من تدعو غريب
إذا سمع النداء نوى نهوضا ... تنوء به وتقعده الذنوب
وتظهر فيه عجزا لا يقاوى ... فيوشك جسمه وهنا يذوب
ولكن ربما جذبته قهرا ... عناية من دعاه فيستجيب

ومنها يصف بزوغ فجر الإسلام :

أتيت علة بزغت كشمس ... ولكن مالها أبدا غروب
لقد نسخت بها ملل فغابت ... طوالعها وحق لها المغيب
به الإسلام حين أتت غريب ... فآنس أهل ملته الغريب
تنادوا كلهم أهلا وسهلا ... هلم فمندنا الروح الرحيب
فكان لهم بنصرته اغتباط ... وكان نصيبهم نعم النصيب

ولقد كان من أهم الأغراض الشعرية التي احتلت مكانا بارزا في شعر الزمزمي ، الحنين إلى الأوطان ، فهو بحكم رحلاته الكثيرة المتعددة ، وما كان يلاقي فيها من عنت ومشقة ، وما يحسه من ألم لفراق الأصحاب والأحباب ، والأهل والولد ، يسفح الدم شعرا رقيقا يملأ النفوس أسى ، ففي رحلته الأولى إلى بلاد الروم شخص من مكة مع الركب المصري إلى مصر ثم إلى الروم من البحر ، فلما وصل إلى منهل مشهور كان يرده الركب المصري عادة يسمى (الوجه) وهو واد فسيح به شجر من الأراك تذكر مكة وما حولها من الأراك ، واشتد به الشوق والحنين إلى والدته وأخوته وبنيه ، وإذا هو يهتف بهذا القصيد .

حشا فيه من صدع الفراق قروح ... وجفن جفاه النوم فهو قريح
وحسب النوى قلب من الوجد خافق ... ووابل دمع في الخدود سفوح
تضيق بي الدنيا إذا ما ذكرتكم ... وتعرض في فكري مهامه فيح
ولا سيما طفل الذي من صبابتي ... ووجدي به روحي تكاد تروح
ولم أنس إذ فارقته وهو مطرق ... وألفت وجهي عنه وهو ينوح
ترى هل إلى أم القرى لي أوبة ... تزيح همومي والمنا وتريح
وياحبذا (الوجه) واد بسفحه ... أراك له طيب يشم وريح
مررنا به والركب وان من السرى ... وشمس الضحى وسط السماء تلوح
وقد أورقت أغصانه وظلاله ... ترف ومرأى العين فيه فسيح
ذكرت به وادي الأراك من الحمى ... وعيشا مضى فيه وظلت أنوح
وبرح بي وجدي إلى أن رأيتني ... أقوم مرارا ثم ثم أطيح
رعى الله دهرا مر حلوا بمكة ... ليالي عنا النائبات تزوح
إذ العيش غض والربوع منيرة ... ودهري بما رمت منه سموح
عذيري من الأيام يجفين داءما ... على فكم من جورهن أصيح
تبين لي الوجه الذي لا أحبه ... ويخفين وجها لي إليه طموح

وربما لج بنفس الزمزمي لاعج الشوق وألح إلحاحا شديدا فاذا هو يناجي عروس الشعر بالقصيد ارتجالا . ومن ذلك أنه لما كان بمدينة (أدنه) وشاهد قافلة حولها قافل ، وزنجبيل وقرنفل ، مما يحمل من مكة وجدة برا وبحرا إلى مصر والشام ، هتف به داعي الحنين وتذكر أرض الحجاز فأنشد على البديهة قصيدة خفيفة جاء فيها :

وميض البرق بعد سنه ... نفى عن ناظري وسنه
وذكرني عهود هوى ... بها الأرواح مرتهنه
وهل نسيت فاذكرها ... إذن إني من الخونه
وما بالعهد من قدم ... فما مرت عليه سنه
معاذ الله أن أنسى ... فروض الحب أو سننه
وقلبي كل آونة ... يجدد ذكرها حزنه
وبي شوق لأجياد ... أهاج من الحشا شجنه

ربوع هن لى سكن وهل تنسى الفتى سكنه
سقى الله الحجاز ومن أتى منه ومن سكنه

وإن ديوان الزمزمى الذى اقتطفنا منه النماذج السابقة لا يضم جميع شعره ، لأنه قصره على أبواب خاصة . وإن الباحث ليجد له قصائد ، أو إشارة إلى قصائد ، فى أغراض متنوعة مبثوثة هنا وهناك فى بعض المظان ، فقد ذكروا أنه عارض القصيدة الميمية التى نظمها القاضى أبو السعود الرومى والتى مطلعها :

أيمد سليمى مطلب ومرام وغير هواها لوعة وغرام

كما ذكروا أنه مدح أمير مكة أبا نمى بقصيدة طويلة معارضا بها قصيدة الخطيب (ابن داريا) ويمضى الزمزمى فى مطلع هذه القصيدة على النحو الآتى من الغزل التقليدى المعروف :

ليحتس الصهباء من يحتسى حسبى لى مرشفك الألمس
على أطلق منه كامى ولا توحش بحبس الكاس يا مؤنس
فى طرفك الوسنان والخد ما يهزأ بالورد وبالنرجس
وجهك لى روض جديد إذا أحلقت الأرض القبا السندسى

ولما توفى العلامة حامد بن محمود الجبرتى وكان له صديقا حميما عقدت بينهما أواصر الصداقة نحوا من خمسين سنة ، رثاه بقصيدة مطلعها على النحو الآتى :

أيها الغافل الذى تغبه إن بالنوم يقظة الناس أشبه
وتأمل فإنما الناس سفر دار دنياهم لهم دار غربه
كل يوم تحل فى السرح منها عصبة منهمو وترحل عصبه
كيف يهنا الفتى بها وهو فيها يشتكى دائما فراق الأحبه
واحدا إثر واحد قد تداعوا للفنا يا لكربة إثر كربه

وهذه القصيدة الطويلة تجدها — أيها القارئ — فى النور السافر وهى تدل على وفائه لصديقه الذى يقول فيه :

مزجت روحه بروحى فأضحى منطق نطقه وقلبى قلبه

وكان الزمزمى — إلى وفائه — حرا أبيا لا يقيم على ضيم استمع إليه وهو يرد على الذين لاموه فى تركه أهل بيته وانتجاعه اليمن دارا ، ذاكرا كيف سامه الولاة الخسف ، وكيف تنكرت له الأرض ونبا به المكان وساءه الزمان ، وكيف تبدلت الأحوال غير الأحوال ، فإذا الذليل عزيز ، وإذا العزيز ذليل ، يستفزه الإذلال حتى اضطر إلى أن يخرج من مكة وحيدا فى الخفاء يلتمس مضطربا فى الخافقين . ولعل خروجه كان فى سنة ٩٥٨

رب قوم تفاوضوا فى حديثى وأطالوا فيه وخاضوا وجالوا
زعموا أننى أسأت بتركى أهل بيتى والكل كل عيال
لا تزيدوا نارا على قلبى فيه نار تأججت واشتعال
إن أرضى تنكرت وزمانى ساءنى واستحالت الأحوال
فالحقير الذليل صار عزيزا والعزيز استفزه الإذلال
قد رمتنى الولاة عن فردقوس أقصدتنى سهامها والنبال
كم هموم جرعتها ما عليها لأبى تجلد واحتمال
واحتمال الأذى ورؤية جانيه قذى فى الجفون داء عضال
أكذا دائما أكون مهانا ولسانى تقل منه النضال
ومكانى فى خدمة العلم سام وبدرسى للطالبين احتفال
غصة لا يسيغها ريق حر وشكاة يضيق عنها المقال
سمة الخافقين فيها اضطراب وللأرض من أخيها إبدال

عبد الله عبد الجبار
مدير البعثات العربية السعودية بمصر

للاستاذ أحمد حسن الزيات بك

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر، بأسلوب قوى ، واستيعاب موجز، وتحليل مفصل ، واختيار موفق، ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع اثنتى عشرة مرة فى ٥٢٥ صفحة
وثمنه أربعون قرشا عدا أجرة البريد